أفكار العلامة محمد إقبال حول عالم العرب واتحاد الأمة المسلمة*

د/ خورشيد رضوي

بسم الله الرحمن الرحيم وله الحمد، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء والمرسلين، خاتم النبيين، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وأهل بيته أجمعين.

أما بعد، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أيها الحضور الكرام، إني ليسرني القدوم إلى الجامعة الاردنيه ، وإلى هذه الحفلة الميمونة، في هذه الحلقة الدراسية التي نحيي فيها ذكرى بطل من أبطال الأمة المسلمة، أي الشاعر المفلق والفيلسوف الكبير العلامة محمد إقبال، تغمده الله برحمته، ونتكلم عن أفكاره حول عالم العرب واتحاد الأمة المسلمة.

ولا أجد لفاتحة مقالي، في هذا الصدد، أجدر مما قاله أبو منصور، عبد الملك بن محمد الثعالبي في كتابه الشهير "فقه اللغة وسر العربية"، قال في مقدمة الكتاب:

"..... إن من أحب الله أحب رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومن أحب النبي العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية..."[١]

اخترت هذا الاقتباس لأنه يعطينا مفتاحا لعقلية إقبال، ويشرح لنا السبب الحقيقي لإقبال إقبال على العرب. فإنه أحب الله وأحب رسوله صلى الله عليه وسلم أشد حب، وأحب لحبه العرب والعربية، وأولع بالثقافة العربية الساذجة التي كان يراها أحسن الثقافات، والتي كان يريد ويهوى أن تتوجه إليها الآداب الإسلامية حيث كانت، فإنه قد خصص في ديوانه الفارسي "أسرار خودي" (أسرار إثبات الذات) باباً حول "حقيقة الشعر وإصلاح الآداب الإسلامية"

وأوصى عند نهاية هذا الباب بهذه التوصية:

---

*قرئ هذا المقال فى الجامعة الاردينة، عمان، الاردن في ٢٠، مايو ٢٠٠٩م، في الموتمر المنعقد تحت عنوان: "معنوية فكر اقبال للعالم العربى"-

فكر صالح در ادب مي بايدت
رجعتي سوئے عرب مي بايدت[٢]

"ينبغي أن تلزم الفكر الصالح في الأدب
وأن تكون لك عودة إلى العرب"

وقد نقل الدكتور عبد الوهاب عزام هذا البيت إلى العربية شعرًا- قال:

من بفكر صالح في الأدب
ارجعن يا صاح شطر العرب[٣]

وقد أشار الدكتور طه حسين إلى هذه النزعة العربية عند إقبال في مقاله: "إقبال، شاعر فرض نفسه على الدنيا وعلى الزمان" قارن فيه بين إقبال وبين أبي العلاء المعري، فقال:

"أحدهما —وهو أبو العلاء- كان في أيامه ينظر إلى الهند ويطيل النظر إليها والأخذ عنها والتأثر بها حتى التزم في حياته حياة المتنسكين من البراهمة.

والآخر — وهو إقبال- كان ينظر إلى العرب ويشيد بهم ويتخذهم المثل الأعلى للإنسانية الجديرة بالوجود والحياة والبقاء"[٤]

واختار إقبال لنفسه اللغة العربية كمادة دراسية منذ حياته المدرسية[٥] ونجده، فيما بعد، يخبر السير كشن برشاد في رسالة بأنه فاز في الامتحانات بالأولية في مادة اللغة العربية في إقليم بنجاب،[٦] (ولعل ذلك في مرحلة بكالوريوس) وقام بتدريس اللغة العربية في جامعة لندن لمدة ستة أشهر، خلال ١٩٠٧م-١٩٠٨م، نيابة عن أستاذه السير تامس آرنلد[٧] -ونراه يذكر ديوان الحماسة كما يذكر امرأ القيس وعنتره والمتنبئ في كتاباته المبعثرة-[٨] وقد وصف الشعر العربي بأنه ليس في الشعر العالمي ما يضاهيه في كونه مباشرا وصريحا ومتدفقا بروح المروءة كما وصف العربي بأنه مولع بالواقع، لا يسترعى اهتمامه بريق الألوان[٩] ويجدر بالذكر هنا ما حكاه الأستاذ أبو الحسن علي الندوي في كتابه "روائع إقبال" من أنه زار إقبالاً قبل وفاته بشهور، وطالت الجلسة، وتحدث إقبال فيما تحدث عن الشعر العربي القديم، وتحدث عن إعجابه بصدق هذا الشعر وواقعيته وما يشتمل عليه من معاني البطولة والفروسية وتمثل ببعض أبيات الحماسة[١٠] وأبدى إعجابه ببيتين لشاعر حماسي وهو أبو الغول الطهوي[١١] والبيتان:

فدت نفسي وما ملكت يميني
فوارس صدقت فيهم ظنوني
فوارس لا يملون المنايا
إذا دارت رحى الحرب الزبون[۱۲]

وكان إعجابه بشعر أبي الغول لأنه يدل على واقعية العرب وحب الفروسية، ولما يحمله بين طياته من القوة والشدة والصلابة ومعنى الصبر على الشدائد والصمود في وجهها، فإنها صفات قد أغرم بها إقبال وشغف وحض عليها في شعره الأردوي والفارسي، وكأنما قد سرت فيه روح الشعر العربي وقوته وإن كانت لغته تختلف عن اللغة العربية، وذلك مما أشار إليه إقبال حيث يقول:

عجمی خم ہے تو کیا مے تو حجازی ہے مری
نغمہ ہندی ہے تو کیا لے تو حجازی ہے مری[۱۳]

"لا بأس إذا كان الدنّ عجميا
فإن خمرتي عربية حجازية،
ولا ضرر إذا كانت أغنيتي هندية
فإن نغمة صوتي هي نغمة عربية حجازية"

ونرى على الصور الفنية في شعر إقبال أثرًا واضحاً جلياً للقرآن والحديث والأقوال العربية المأثورة والشعر العربي –ويتكرر في شعره الاقتباس من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. يقول مثلا:

آہ اے مرد مسلماں تجھے کیا یاد نہیں
حرف "لا تدع مع الله إلهاً آخر"[۱٤]

"آه! يا أيها المسلم ألا تذكر ذلك القول
(قول الله سبحانه وتعالى)
وهو "لا تدع مع الله إلها آخر"[۱٥]
فقد ضمّن الشطر الثاني من البيت نصاً كاملاً من القرآن المجيد.

وكذلك يقول مشيرًا إلى مجد المسلمين السالف:

کس کی ہیبت سے صنم سہمے ہوئے رہتے تھے
منہ کے بل گر کے "ھو اللہ احد" کہتے تھے[١٦]

"من الذي كانت الأصنام ترهبه وتهابه دائما
وتخر على الأذقان قائلة: "هو الله أحد"[١٧]

فقد استعار كلمات من سورة الإخلاص وجعلها جزءا من شعره.

وإذا راجعنا أول قصيدة من أول دواوينه، وهو "بانك درا" (صلصلة الجرس) ألفيناه يصف جبل هملايا ، وهو أشهر جبل من جبال شبه القارة الهندية الباكستانية، ويقول:

چوٹیاں تیری ثریا سے ہیں سرگرم سخن
تو زمیں پر اور پہنائے فلک تیرا وطن[١٨]

"(يا هملايا!)
إن ذراك العالية
تتجاذب أطراف الحديث مع الثريا
أنت راسخ القدم في الأرض
وقد توطنت (برأسك الشامخ) أجواء الأفلاك الفسيحة."

ولا يخفى على من له أدنى إلمام بالأدب العربي أن بيتاً من ديوان الحماسة يُظل جو هذا البيت –ألا وهو بيت مشهور من لامية السموءل بن عادياء– وقد وصف أيضاً جبلاً فقال:

لنا جبل يحتله من نجيره
منيع يرد الطرف وهو كليل[١٩]

ثم أتبعه البيت الذي نشير إليه وهو:

رسا أصله تحت الثرى وسما به
إلى النجم فرع لا ينال، طويل[٢٠]

فما دمنا نعرف أن كلمة "النجم" في العربية قد أصبحت كاسم علم للثريا، فإذا قالوا: طلع النجم يريدون الثريا،[٢١] ما دمنا نعرف ذلك وما دمنا نرى "جبلا" إزاء "جبل" و"الثريا" مقابل "الثريا" والرسوخ في الأرض نفس الرسوخ في الأرض والعلو إلى

السماء نفس العلو إلى السماء في كلا البيتين، لم نكد نرتاب في أن إقبالاً استوحى من بيت السموءل، وذلك مما يدل على تأثير الشعر العربي القديم في قريحة إقبال.

هذا في أول الدواوين. فإذا جاوزناه إلى آخر الدواوين وهو "أرمغان حجاز" (هدية الحجاز) – والاسم نفسه ينم عن علاقة الود بمهد الإسلام والعروبة– وجدنا إقبالاً قد استعار بيتاً كاملاً من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي ومزجه ببيت فارسي من عنده، فوسّع بذلك أفق البيت العربي بحيث طبّقه على معنى أعمق وأوسع وأشمل. قال:

صبنت الكأس عنا أم عمرو
وكان الكأس مجراها اليمينا
اگر این است شرط دوستداری
بدیوار حرم زن جام ومینا[۲۲]

فوسّع نطاق المعنى على سبيل الرمز وصرف الخطاب من محبوبة بعينها إلى المحبوب الحقيقي، وهو الله سبحانه وتعالى، وشكا إليه بثه وحزنه قائلاً: إنك صرفت كأس سيادة العالم عنا إلى غيرنا وسقيتهم دوننا، وكنا أحق بذلك لأواصر قديمة، فإذا كانت هذه هي شروط علاقات الود فاضرب بالكأس والإبريق على جدار الحرم –وهذا الكلام من قبيل شكوى دلال، وما أكثر ذلك عند إقبال– ومصدره إنما هو الحب والإخلاص للإسلام وللمسلمين... وهكذا نجد طابع الشعر العربي على شعر إقبال من أول دواوينه إلى آخرها يلوح "كباقي الوشم في ظاهر اليد" على حد تعبير طرفة بن العبد.

لا أريد الإكثار من الأمثلة، ولكني أجد في نفسي دافعاً قوياً لذكر فكرة فنية نشأت في الأدب العربي، ثم تسربت إلى الأدب الفارسي، فتغير لونها بعض التغير حتى جاء إقبال، فردها في شعره الأردوي إلى لونها العربي الخالص –ولكن لا بد من ذكر خلفية هذه الفكرة قبل ذكرها– ويرجع بنا ذلك إلى الحكايات والأساطير السائرة في المجتمع العربي منذ عصر الجاهلية– وفي جملتها حكاية جذيمة الأبرش[۲۳] ملك الحيرة الذي كان فخورًا بنفسه للغاية، لا يرى أحدًا جديرًا بأن ينادمه على الشراب. فكان يشرب وحيدًا ويريق على الأرض قدحاً كنصيب كل من الفرقدين، وهما نجمان عاليان بجوار القطب الشمالي، ويقول: إنما هما نديمان لي في السماء– وسرت هذه الفكرة وجرت حتى ظهرت عند بعض شعراء العربية فقال:

شربنا وأهرقنا على الأرض جرعة
وللأرض من كأس الكرام نصيب[٢٤]

وأخذ هذا المعنى شاعر الفرس الكبير حافظ الشيرازي فقال:

اگر شراب خورى جرعه اى فشان بر خاك
از آن گناه كه نفعي رسد بغير چه باك[٢٥]

" إذا شربت الخمر
فأرق جرعة على التراب
وهل هناك حرج في ذنب
يأتي من ورائه الخير لأحد"

ثم تبع هذا المعنى شاعرنا الكبير ميرزا غالب، فقال في قصيدة فارسية يمدح بها آخر ملوك المغول في الهند وهو بهادر شاه ظفر:

رشحه برمن بچكاں بادهء گلرنگ بنوش
جرعه بر خاك فشاندن روش اهل صفاست[٢٦]

"إذا شربت الصهباء
فرُشّ عليّ رشحة منها
فإنها من سنّة أهل الصفاء إراقة جرعة على التراب"

ثم جاء صاحبنا محمد إقبال وقال قصيدته الطنانة حول "مسجد قرطبة" الذي بدأ بناءه صقر قريش عبد الرحمن الداخل، وزار إقبال هذا المسجد سنة ١٩٣٣م، أي قبل وفاته بخمسة أعوام- وهذه القصيدة من آيات الشعر العالمي، ومنها البيت الذي سيق هذا الكلام من أجله وهو:

عشق کی مستی سے ہے پیکر گِل تابناک
عشق ہے صہبائے خام عشق ہے کأس الکرام[٢٧]

"إن الوجود الترابي
يتلألأ بنشوة العشق
لأن العشق عبارة عن الرحيق الخالص

وعن كأس الكرام"

فبإيراد تعبير "كأس الكرام" وصل إقبال الفرع بأصله ورد الأمر إلى نصابه– فما دام العشق هو "كأس الكرام" فلا بد من أن تفيض منها جرعة إلى الوجود الترابي فتنوره بنوره.

وصقر قريش، عبد الرحمن هذا قد أظل شعر إقبال مرة أخرى أيضاً في غير هذه القصيدة. وحديث ذلك أن عبد الرحمن لما نجا هارباً من الشام، قطع مسافات طويلة حتى وصل إلى أرض الأندلس وأسس فيها دولة قدر لها البقاء لسبع قرون طويلة. فحدث يوماً من الأيام أنه رأى في رصافة قرطبة نخلة –ولم يكن النخل من نبات الأندلس– فذكرته هذه النخلة الغريبة النائية، بغربته وبعده عن بلده وأهله وصادفت من نفسه مكاناً ملؤه الحزن والحنين فقال:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول التنائي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي
يسح ويستمري السماكين بالوبل[٢٨]

فوقعت هذه الأبيات من قلب إقبال موقعاً حسناً، وترجمها إلى الشعر الأردوي وأثبته في ديوانه "بال جبريل" (جناح جبريل) وأثبت فيه أيضاً ما نقله إلى الشعر الأردوي من روح أبيات للمعتمد بن عباد قالها وهومكبل مغلول في سجن أغمات وهي:

تبدلت من عز ظل البنود
بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سنانا ذليقاً
وعضباً رقيقا صقيل الحدود

فقد صار ذاك وذا أدهما
يعض بساقي عض الأسود[۲۹]

وقد أفرغ إقبال على ترجمته الأردوية لهذه الأبيات لوناً من خياله المبدع فخلقها خلقاً جديدا في صورة ربما أصبحت أكثر خلابة من الأصل– انظر مثلاً في هذا البيت:

خود بخود زنجیر کی جانب کھچا جاتا ہے دل
تھی اسی فولاد سے شاید مری شمشیر بھی[۳۰]

"إن قلبي ليشعر بجاذبية غريبة
تجذبني نحو السلسة التي تقيدني
أفهل ترى سيفي كان مصنوعاً من نفس الحديد؟"

وكانت البقاع العربية تكوّن عالم أحلام إقبال. ومما يدل على ذلك كثرة ما ورد في شعره من ذكر هذه البقاع كالحرمين الشريفين والحجاز والعراق وسوريا وفلسطين ومراكش ومصر وطرابلس والنجف والكوفة وبغداد وبدر وحنين ودجلة والفرات ودمشق ونجد وبلاد الأندلس ، مثل قرطبة وغرناطة لماضيها العربي. وكم كان إقبال يتمنى، ولا سيما في السنوات الأخيرة من حياته، أن يحج البيت وأن يتشرف بزيارة مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلم. وديوانه الأخير "أرمغان حجاز" (هدية الحجاز) الذي نُشر بعد وفاته، يحمل طابع هذا الاشتياق الشديد إلى أرض الحرمين الشريفين، وكان يسعد بهذا السفر، ليل نهار في خياله –وإن لم يتحقق في عالم الحقيقة– وسفر الحج إذ ذاك، كان يتم بالسفن، وكان إقبال يكاتب بعض شركات السفر في هذا الصدد ويعيش غارقاً في جو الشوق. وما أكثر ما خنقته العبرة عندما أنشد بعض الأصدقاء قطعة من هذا الشعر الذي ملك عليه ليله ونهاره، ومنه يقول:

به ایں پیری ره یثرب گرفتم
نوا خواں از سرور عاشقانه
چو آں مرغے که در صحرا سر شام
کشاید پر به فکر آشیانه[۳۱]

"أنا في طريقي إلى المدينة المنورة
وإن أصبحت طاعناً في السن

أنشد أناشيدي التي
ملؤها نشوة الغرام
ومثلي كمثل الطائر الذي
قضى نهاره في رحاب الصحراء
وقد أظله وقت الأصيل
فيخفق بجناحيه يسرع في الطيران
لايهمه شيء
إلا الوصول إلى عشه
قبل مغيب الشمس"

وأُتيح لإقبال أن يسافر إلى بعض الأقطار العربية، خلال شهر ديسمبر سنة ۱۹۳۱م وهو متوجه إلى فلسطين للحضور في مؤتمر العالم الإسلامي — فمر في طريقه بالإسكندرية والقاهرة ورحب به المسلمون، وأقيمت حفلات، منها هذه الحفلة التي سجل ذكرها الدكتور عبد الوهاب عزام قائلاً:

"ومر إقبال بالقاهرة في طريقه إلى المؤتمر الإسلامي ببيت المقدس، فاحتفلت به جمعية الشبان المسلمين وحضرتُ الحفلة فكلفني أستاذي الشيخ عبد الوهاب النجار، رحمه الله، أن أعرف الحاضرين بالضيف الكريم، فتكلمت وأنشدت أبياتاً من شعر إقبال، أحسبها أول ما سمع من شعره في بلاد العرب"[۳۲]

وأقام إقبال بالقاهرة لعدة أيام وطاف ببساتينها الجميلة على شاطئ النيل وزار الهرم الأكبر والأوسط والأصغر، كما شاهد أبا الهول وجال في متحف القاهرة وسافر إلى الفسطاط، فرأى جامع عمرو بن العاص وحضر إلى ضريح الإمام الشافعي فجلس هناك ملياً يتلو القرآن الكريم. ثم ذهب إلى جامعة الأزهر وجلس مع الطلاب يستمع إلى دروس التفسير والحديث والمنطق ولاقى شيخ الأزهر الشيخ مصطفى المراغي ثم سافر بالقطار إلى بيت المقدس وبقي هناك حوالي أسبوع وحضر في جلسات المؤتمر، وتأثر الشباب العربي بشخصيته في كل مكان.

وقد سجل إقبال انطباعاته عند زيارة الأهرام في شعره الخالد، وقال إن الطبيعة لم تخلق في رحاب هذه الصحراء الصامتة إلا كثباناً من الرمل، ولكن الأهرام الشامخة تحنو أمام رفعتها الأفلاك، فمن الذي رسم هنا هذه الصور الخالدة؟ فاجعل الفن

متحررًا من الخضوع أمام الطبيعة– يا هل تُرى الفنان صائدًا أم فريسة؟[٣٣]

ورسالة إقبال في هذه الأبيات هي أن الإنسان أجلّ وأكبر من الطبيعة وبإمكانه أن يغلب الطبيعة ويسخرها بفنه كما فعل بنّاؤو الأهرام.

أما فلسطين فأثرت في نفس إقبال تأثيرًا عميقاً، وتفتحت قريحته في أجوائها فقال قصيدته الطويلة الشهيرة "ذوق وشوق" التي صرّح في بدايتها، في ديوانه "بال جبريل" (جناح جبريل) أن أكثرها نُظم في فلسطين، وبعد عودته إلى لاهور تكلم إلى بعض الصحفيين فقال فيما قال: "إن السفر إلى فلسطين كان من أمتع أسفاري في حياتي، ولقد أعجبني الشباب في سوريا لأني رأيت فيهم من الإخلاص والأمانة ما لم أره إلا في شباب إيطاليا الفاشستيّن، وإني متيقن أن مؤامرة توطين اليهود في فلسطين سوف تفشل، وأتمنى بكل قلبي أن يقوم أبناء العربية بتأسيس جامعات، وأن ينقلوا العلوم الحديثة إلى اللغة العربية".[٣٤]

وتحمّس إقبال لموقف العرب من القضية الفلسطينية فقال:

ہے خاکِ فلسطین پہ یہودی کا اگر حق
ہسپانیہ پر حق نہیں کیوں اہلِ عرب کا[٣٥]

"إذا ثبت لليهود حق على أرض فلسطين
فلماذا لا يثبت للعرب حق على أسبانيا"

وكذلك تحمّس لسوريا عندما قال:

فرنگیوں کو عطا خاکِ سوریا نے کیا
نبی عفّت وغم خواری وکم آزاری
صلہ فرنگ سے آیا ہے سوریا کے لیے
مے وقمار وہجومِ زنانِ بازاری[٣٦]

"إنّ أرض سوريا أهدت للإفرنج
نبي العفة والمؤاساة وعدم الإيذاء

فأهدت الإفرنج إلى سوريا، مقابل ذلك
الخمر والميسر وزحام المومسات"

وكان إقبال ينصح للعرب ويخلص لهم الودّ وقد خاطب، في دواوينه المختلفة، الأمة العربية بأجمعها، كما خص بالخطاب أمراءهم وشعرائهم فذكّرهم بمجدهم السالف، وقال لهم قولاً ليناً في الغالب، ولكنه وجّه إليهم النصائح المرّة أحياناً دأب المحب المخلص، وقد لخّص الأستاذ أبو الحسن على الندوي، رحمه الله تعالى، أفكار إقبال ونصائحه في هذا الصدد، تحت عنوان: "إلى الأمة العربية" في كتابه الذي سبق أن ذكرناه وهو كتاب "روائع إقبال" الذي حظي بقبول حسن في البلاد العربية، ونرى من المفيد أن نقتبس منه هنا بعض العبارات التي تنعكس فيها وجهة نظر إقبال بخصوص العرب.

"أيتها الأمة العربية، التي كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود، من الذي سمع العالم منه نداء "لا قيصر ولا كسرى" لأول مرة في التأريخ، ومن الذي أكرمه الله بالسبق إلى قراءة القرآن؟ من الذي أطلعه الله على سر التوحيد، فنادى بأعلى صوته "لا إله إلا الله" وما هي البقعة التي اشتعل فيها هذا السراج الذي أضاء به العالم؟ هل العلم والحكمة إلا فتات مائدتكم...[٣٧]

"أسفاً على هذا الخمود والجمود أيها العرب! ألا ترون إلى الأمم الأخرى كيف تقدمت وسبقت؟ أما أنتم فما قدرتم قدر هذه الصحراء التي نشأتم فيها وهذه الحرية التي ورثتموها. كنتم أمة واحدة، أمة الإسلام، فصرتم اليوم أمما وكنتم حزباً واحدًا،حزب الله، فأصبحتم أحزاباً، لقد فرّقتم جمعكم ومزقتم شملكم وانقسمتم على أنفسكم"[٣٨]

"مهلاً أيها الغافلون! إياكم والركون إلى الإفرنج والاعتماد عليهم. ارفعوا رؤوسكم وانظروا إلى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم، ألا إنه لا حيلة لكم ولا وزر إلا أن تطردوهم عن منهلكم وتذودوهم عن حوضكم، إن حكمة الغرب قد أسرت الأمم وتركتها سليبة حزينة، لا تملك شيئاً، إنها مزّقت وحدة العرب واقتسمت تراثهم، إن العرب لما وقعوا في حبائلهم، تنكّر لهم كل شيء وقسا عليهم هذا الكون، ولم يجدوا من يرثي لهم ويرفق بهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت

وضاقت عليهم أنفسهم"[٣٩]

"أنا أعلم جيدًا يا إخواني العرب! أن النار التي شغلت الزمان وبهرت التأريخ، لم تزل ولا تزال تشتعل في وجودكم، صدّقوا أيها السادة! أنه لا دواء لكم في جنيف ولا في لندن، لأنكم تعلمون أن اليهود لا يزالون يتحكمون في سياسة أوروبا ولا يزالون يملكون زمامها. إن الأمم لا تذوق طعم الحرية والاستقلال حتى تُربّي فيها الشخصية والاعتداد بالنفس وتعرف لذة الظهور".[٤٠]

"إن الله قد رزقكم البصيرة النافذة ولا تزال فيكم الشرارة كامنة فقوموا أيها العرب! ورُدّوا فيكم روح عمر بن الخطاب مرة أخرى، إن منبع القوة ومصدرها هو الدين، منه يستمد المؤمن العزم والإخلاص واليقين، ومادامت ضمائركم أمينة للسر الإلهي فيا عُمّار البادية! أنتم الحُرّاس للدين وأمناء الله في العالمين[٤١]

وكان إقبال يؤمن إيماناً واثقاً بأن علوم الطبيعة التي ازدهرت في العصر الجديد ووطّد بها الغرب أركان تفوقه، إنما برزت إلى العالم، لأول مرة، على يد العرب في الأندلس، ثم التقطها الغرب وتبنّاها فيما بعد. قال،مثلاً، في مثنويه الشهير "مسافر":

حکمتِ اشیا فرنگی زاد نیست
اصل او جز لذتِ ایجاد نیست
نیك اگر بینی مسلماں زادہ است
ایں گہر از دستِ ما افتادہ است
چوں عرب اندر اروپا پرکشاد
علم و حکمت را بنا دیگر نہاد
دانہ آں صحرا نشیناں کاشتند
حاصلش افرنگیاں برداشتند[٤٢]

"إن العلوم الطبيعية
لم تُحدثها الإفرنج
إنما نشأت من لذة الاختراع أينما وُجدت
فإذا تأملت جيدًا

تبينت أنها من تراث المسلمين
وأن هذه اللؤلؤة انفلتت من يدنا نحن
عندما طار العرب بأجنحتهم
في أجواء أوروبا
جددوا قواعد العلوم والحكمة
وزرع قطان البادية هؤلاء
أول بذرة لهذه المعارف
ولكن الإفرنج تمتعوا بالحصاد"

وكذلك يبوح إقبال برسالته إلى الأمم العربية في أثره الخالد "جاويد نامه" (رسالة الخلود) على لسان الدرويش السوداني:

گفت اے روحِ عرب بیدار شو
چوں نیاگاں خالقِ آثار شو
زندہ کن در سینہ آں سوزے کہ رفت
در جہاں باز آور آں روزے کہ رفت[۴۳]

"قال: يا روح العرب هبّي من نومك
وقومي بخلق الأعصار مثل آبائك السالفين
وجدّدي في الصدور
تلك الحرقة التي خمدت
وأعيدي إلى العالم
تلك الأيام التي قد أدبرت"

كم يود إقبال أن يستعيد المسلمون سذاجة الثقافة العربية، كما كانت في خير القرون، وكم يتمنى أن تذوب فروق الشرق والغرب والعرب والعجم بين الأمة المسلمة التي لا توجد لعالمها حدود ولا ثغور جغرافية ولا يفرّق بين أعضائها اختلاف الألسنة والألوان والأنساب والأوطان، إنما تقوم هذه الأمة على الإيمان بتوحيد الله تعالى، وهذا الإيمان يوحّد بين شعوبها ويؤلّف بين أجزائها. وقد وضّح إقبال ذلك في بيت خالد يشير إلى الفرق الجذري بين الأمة المسلمة والأمم الأخرى، قال:

اپنی ملت پر قیاس اقوامِ مغرب سے نہ کر
خاص ہے ترکیب میں قومِ رسولِ ہاشمی[٤٤]

"لا تقس ملتك إلى الملل الغربية
فإن ملة الرسول الهاشمي، صلى الله عليه وسلم لها قوامها الخاص".

وأختم مقالي بأبيات من قصيدة إقبال المشهورة "جواب الشكوى" التي نقل روحها إلى العربية الشاعر المصري الأستاذ صاوي شعلان –رحمه الله–، وغنتها كوكب الشرق السيدة أم كلثوم، فاشتهرت في البلاد العربية بعنوان: "حديث الروح" إشارة إلى مفتتحها:

حديث الروح للأرواح يسري
وتدركه القلوب بلا عناء
هتفتُ به فطار بلا جناح
وشق أنينه صدر الفضاء
ومعدنه ترابي ولكن
جرت في لفظه لغة السماء

أدى إقبال في هذه القصيدة رسالته إلى المسلمين لتوحيد كلمتهم والقضاء على التفرق والتشتت قائلاً:

منفعت ایک ہے اس قوم کی، نقصان بھی ایک
ایک ہی سب کا نبی، دین بھی، ایمان بھی ایک
حرمِ پاک بھی، اللہ بھی، قرآن بھی ایک
کچھ بڑی بات تھی، ہوتے جو مسلمان بھی ایک
فرقہ بندی ہے کہیں اور کہیں ذاتیں ہیں
کیا زمانے میں پنپنے کی یہی باتیں ہیں؟[٤٥]

"إن نفع هذه الأمة وضررها
لا يختلف من شعب إلى شعب
فالنبي واحد للكل

والدين واحد
والإيمان واحد
والحرم والقرآن والله واحد
فهلا أصبح المسلمون يدًا واحدة؟
ومع الأسف قد جعلوا فيما بينهم فِرقاً متحاربة
وانقسموا إلى طبقات اجتماعية تقوم على الأنساب
فهل هكذا يُتّبع سبيل الرقيّ في العالم؟

وشكرًا لكم سادتي لحسن استماعكم
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

❁❁❁

حواشی

[1] الثعالبي، أبو منصور، عبد الملك بن محمد، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص:١٥.

[2] كليات إقبال (فارسي)، شيخ غلام على ايند سنز، لاهور، الطبعة السادسة، فبراير ١٩٩٠م، ص:٣٨.

[3] ديوان محمد إقبال، إعداد: سيد عبد الماجد غوري، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، الجزء الأول، ص:١٥٢.

[4] مجلة إقباليات العربية، العدد العربي الخامس، ٢٠٠٤م، أكاديمية إقبال، باكستان، ص:٥-٦.

[5] د/ سلطان محمود حسين، اقبال كي ابتدائي زندگي، إقبال اكادمي، باكستان، لاهور، الطبعة الثانية:١٩٩٦م، ص:١٢٩، ١٣٨.

[6] اقبال نامه، مجموعه مكاتيب اقبال، ترتيب: شيخ عطاء الله، اقبال اكادمي، باكستان، لاهور، ٢٠٠٥م، ص:٤٩٥.

[7] د/رفيع الدين هاشمي، علامه اقبال: شخصيت اور فن، اكادمي ادبيات، باكستان، اسلام آباد، ٢٠٠٨م، ص:٧٩،٨١.

[8] انظر:

Iqbal, *Stray Reflections*, Edit: Javaid Iqbal, First published June 1961, Sh Ghulam Ali & Sons, Lahore. Entry No: 56.
ARAB POETRY. Iqbal, *Speeches, Writings and Statements of Iqbal*, Compiled & Edited by Latif Ahmad Sherwani, Iqbal Academy, Pakistan, Lahore, 5th ed.2005, pp.157-159

[9] Stray Reflections, Loc. Cit.

[١٠]أبو الحسن على الندوي، روائع إقبال، مجلس نشريات إسلام، كراتشي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص:٩.

[١١]نفس المصدر، ص:٢٣١.

[١٢]ديوان الحماسة مع شرح المرزوقي، نشره أحمد أمين/ عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، الحماسية رقم ٣.

[١٣]كليات إقبال (اردو)، شيخ غلام علي ايند سنز، لاهور، فبراير، ١٩٧٣م، ص:١٧٠

[١٤]نفس المصدر، ص:٥١٨

[١٥]القرآن، ٢٦/٢١٣-٢٨/٨٨

[١٦]كليات إقبال(اردو)، ص:١٦٥

[١٧]القرآن، ١١٢/١

[١٨]كليات إقبال(اردو)، ص:٢٢

[١٩]ديوان الحماسة، الحماسية رقم ١٥

[٢٠]نفس المصدر، نفس المكان.

[٢١]ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، بذيل "نجم".

[٢٢]كليات إقبال(فارسي)، ص:٨٨٩.

[٢٣]ابن قتيبه، عبد الله بن مسلم، الدينوري، عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٣هـ/١٩٢٥م، ج:١، ص:٢٧٤.

عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب، دار الثقافة، بيروت، ل.ت، ج:٣، ص:٤٩٨.

[٢٤]اسم الشاعر مجهول- والدكتورة ريحانه خاتون في مقالها "ديوان حافظ مين مذكوره ايك باستاني رسم" – (مجلة "كاوش"، قسم اللغة الفارسية وآدابها بالكلية الحكومية بلاهور، باكستان، العدد٢، ١٩٩٢م، ص:٣٤-٤٢)- قد أوضحت أن البيت مذكور في عدة مصادر باختلاف يسير وأقدم هذه المصادر، حسب تحقيقها، هو إحياء العلوم للغزالي، وقد ورد فيه بيتان وهما:

شربنا شراباً طيباً عند طيب
كذاك شراب الطيبين يطيب
شربنا وأهرقناعلى الأرض فضلة
وللأرض من كأس الكرام نصيب

[٢٥]ديوان حافظ شيرازي (از نسخهء محمد قزويني ودكتر قاسم غني)، أنجمن خوشنويسان ايران، ١٣٦٣، ص:٢٣١.

[٢٦]ميرزا أسد الله خان غالب، قصائد ومثنويات فارسي، مطبوعات مجلس يادگار غالب، جامعة بنجاب، لاهور، ١٩٦٩م، ص:١٦٠.

[٢٧]كليات إقبال(اردو)، ص:٣٨٦.

[٢٨]ابن الأبّار، محمد بن عبد الله، الحلة السيراء، تحقيق: د/حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٦٣-١٩٦٤م، ج:١، ص:٣٧.

المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: دوزي وغيره، ليدن، ١٨٥٨-١٨٦١م، ج:٢، ص:٣٧.

ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق: وستنفلد، الطبعة المصورة، تهران، ١٩٦٥م، ج:٢، ص:٧٨٦.

[٢٩]الفتح بن خاقان، قلائد العقيان، بولاق، ١٢٨٣، ص:٢٣.

[٣٠]كليات اقبال(اردو)، ص:٣٩٤.

[٣١]كليات اقبال (فارسي)، ص:٩٠٦.

[٣٢]عبد الوهاب عزّام، رسالة المشرق،(الترجمة العربية لديوان "بيام مشرق") أكاديمية إقبال، باكستان، لاهور، الطبعة الثانية، ١٩٨١م، مقدمة المترجم، ص:٣-٤.

[٣٣]راجع للمتن الأردوي، كليات إقبال(أردو)، ص:٥٧٨-٥٧٩.

[٣٤]جاويد إقبال، زنده رود، شيخ غلام على ايند سنز، لاهور، الطبعة الأولى، يناير ١٩٨٩م، ص:٧٥٨-٧٥٩.

[٣٥]كليات إقبال (اردو)، ص:٦١٨.

[٣٦]نفس المصدر، ص:٦١١.

[٣٧]روائع إقبال، ص: ١١٣-١١٤.

[٣٨]نفس المصدر، ص:١١٦.

[٣٩]نفس المصدر، ص:١١٧.

[٤٠]نفس المصدر، ص:١٢٠.

[41] نفس المصدر، ص:١١٨.

[42] كليات إقبال(فارسي)، ص:٨٨٠

[43] نفس المصدر، ص:٦٨٥.

[44] كليات إقبال (اردو)، ص:٢٤٨.

[45] نفس المصدر، ص: ٢٠٢.